القوى الإبداعية في العربية الفصحى

د. فوزي علي علي صويلح

أستاذ البلاغة و النقد المساعد ، كلية الأداب جامعة إب ، الجمهورية اليمنية

الإطار المعرفي .. ملخص على سبيل التقديم :

تؤسس (**الفصحى**) في اللسان العربي لصرح مؤثلٍ بالمجد و المعارج ، ففيها يسمو العرب و عليها يَظْهَرُونَ ، حين تغتدِي نسْجاً من الكلام سحريّاً، و نظاماً قوياً ، يميز البيان بمنطوقها كالطلع النضيد ؛ فتبهر العقولُ و تسحر الأفئدة ، حتى بدت في كل عصرٍ كقاعدة مشيدة في الحصن المنيع ، غدت صبغة الهداية في الذكر الحكيم و إشراقة النور في الحق المبين ؛ فمنحها القرآن وسام الشرعية و زادها أصالتها و حقق لها الجودة فنالت من درجات القداسة غاية النفاسة و فقادت قلوب الخصوم من ألسنتهم بالقول الجميل ، بل لقد حصنها من الزوال و كتبها لها البقاء و التحصين .

إن الوعي بقيمة اللغة العربية في إنتاج الأفكار و تمثيل الظاهرة الأدبية في اللسان العربي يثير أسئلة عجلى ، لاهثة الخطو ، متقاربة المدى، لا نجد من ورائها سوى القول : أيهما أشدّ التماعاً أو أكثر تنويراً نبحت من خلاله ملامح الإبداع في مسارات العربية الفصحى و ونقص طرفاً من طرق إنتاج الأشكال اللغوية و الأدبية ، أم نبحث القوى المستورة وراء حجاب المبنى في تمثلات اللغة بين المتكلم و السامع و آفاق الاستجابة التي يبديها الأخير في فهم الكلام و استثمار أبعاده و إعادة تدوير الكلام في سياق تداولي .

لا جرم أن وراء المبنى قوة إبداعية تعمل في الخفاء و تنشط في التجلي بيد أن الظروف المارقة والأحوال السالبة التي فرخت العامية بلوازمها الفاسدة ، ربما حجبت ملمحاً إبداعياً في تمثل العربية الفصحى و نالت شيئاً من السيادة في الخطاب التداولي ، لم نجد سبيلاً لطمر هذا الفيروس إلا بمثل هذه المقاربات .

لذلك ليس لدينا من سبيل نسلكه في هذا المدى حتى يبلغنا صعيداً نركن إليه في مقاربتنا سوى التأمل كرتين للبحث عن الحيثيات المستورة عسى أن يتيسر لنا اكتشاف القوة المائزة و الطاقة النشطة في العربية الفصحى .

أولاً : إشكالية البحث و تساؤلاته :

يتجه البحث نحو منشأ المشكلة التي تتزايد قلقاً في الوعي العربي والإسلامي لدى المفكرين و اللغوين و العلماء العرب ، على نحو يبعث على التساؤل :

- هل اللغة العربية في خطر كما يشعر المختصون ؟ و ماهي الاخطار التي تتنازعها ؟
- ما قيمة الفصاحة في اللغة العربية ؟ و ما لأثر المتحقق في المنطوق اللغوي ؟
- ما هي القوة الإبداعية في العربية الفصحى ؟
- أين يتناهى الفكر اللغوي في إنتاج المعاني ؟ و كيف يتم استقبالها و تمثيلها أدبياً بين المؤلف و المتلقي؟
- هل تمتلك اللغة العربية الفصحى قوى إبداعية تمنحها الديمومة و تعينها على البقاء أو تدفع عنها الأخطار التي تهددها في العصر الحديث ؟

تلك أسئلة تروادنا منذ مطلع البحث ، فقد فرضت سطوتهاعلى الذاكرة بحثاً عن إجابات ناجعة و مقاربات تقص آثار النشوء و أسباب التجلي في اللسان العربي المبين .

فرضية البحث :

يفترض البحث بأن :(**للمنطوق اللغوي في العربية الفصحى قوةً نووية مائزةً، تنتجه في وعي المتكلم ؛ فتعصمه من الزلل و الزوال على سبيل التحصين و تهيئ استقباله ؛ فتمنحه القبول و التأثير لدى المتلقي على سبيل التمكين**) . إن اعتقادنا الافتراضي ناشيء من إيماننا بأن للعربية الفصحى و غيرها من لغات البشر قوانين تنظمها و تشد من عضد المباني فيها بأنسجة متينة ، لا تدركها الباصرة و لا تراها العيون المجردة ، فمثلها كمثل الأسلاك الحديدية التي تتخلل البناء الإسمنتي المسلح ، إذ لا يمكن للرائي أن يحكم بقوة البناء و جسارة المشيّد منه .ومن ثمّ فإنّ ثمة قوى لا يتجاوزها الذهن و لا تخطئها القلوب التي في الصدور، تفرض سلطتها على المتكلم بالعربية و تستقيم في الوعي اللغوي ، بقيمٍ دامغةٍ و براهين راسخة في استحقاقها اللساني لإنتاج الكلام و تمييز جيده من رديئه أو تمثيل الظاهرة الأدبية في الخطاب العربي الفصيح .

ثانياً : أهمية البحث و بواعثه :

يستمد البحث نوره المبين و هويته المعرفية و نضارته المنهجية من طبيعة الظاهرة التي يعالجها و نعني (الفصحى) فهي مشكاة النور التي نتوسل بها و نتلمس من خلالها إضاءة المسلك البحثي و الاهتداء في تحقيق النتائج ، إذ نؤمن يقيناً أنها ما زالت الخيط الذهبي فيما تنورنا به نحو سبيل البحث ، إذ يكتسب شرعيته في تمثيل الظاهرة و مقاربة النظر في العنوان المشار إليه بالقيم الآتية :

ثالثاً : أهداف البحث :

إن ما ننشده من نتائج و أحكام قد يلم شعث الأفكار و يجمع إلى حدٍ بعيدٍ تفرق النظرات المرصودة عبر مسارات الزمن و الأحداث المتعاقبة من حياة اللغة العربية بقوانينها المنهجية و أسرارها الجمالية لذلك يحاول البحث تقديم مقاربة كاشفة بمقتضى المنهج و المعالجة العلمية عن جانب البحث عن ملامح الجودة و القوى الإبداعية في العربية الفصحى بين القديم و الحديث .على أن هذا الجهد لا يمكن أن يفهم الخصائص الكلية للوجود الفني أو الأدبي في صياغة اللغة العربية ما لم تشترك فيها كل التجليات التاريخية للنوعٍ النووي بأي منطوق لغوي .

رابعاً: منهج البحث :

أما المنهج الذي اعتمدته الدراسة فإنه يتحدد بالمنهج النووي الذي نشتغل به في مقاربتنا ؛ بوصفه منهجاً يثير في المنطوق اللغوي لدى المتلقي تداعيات كثيرة، تنتهي به إلى إدراك ما في النوع النووي من قيم و علاقات دلالية و قوى إيحائية جمالية و نفسية .

تضاريس البحث :

يمكننا رؤية البحث في ضوء ماتقدم من أفكار وما يتجلى من قيم المنهج النووي ، على نحوٍ يجعلنا تلقاء طائفة من القيم و المحددات النووية في العربية الفصحى ، فالمحددات خالصة تباعاً في خمسة عناصر ، هي : النواة ، النوع النووي ، الفتيل المتكافئ ، النظير، ثمّ الطلع النضيد و تتمظهر القيم و المقومات النووية في أربع : أولها الأصالة و الجودة ، فالجاذبية ، فالنسبية ، فالتداولية . يسبقها تمهيد لاستكناه ذاكرة المصطلح في تمثيل العنوان و رصد المؤثرات الموضوعية و الفنية التي أسهمت في تشكلاتها ، كما تلحقها خاتمة أودعنا فيها نتائج البحث .

مهاد نظري .. على سبيل الاستهلال

أولاً : ذاكرة المصطلح : (مفهوم القوة) :

تحيلنا المعاجم اللغوية في بيان المنطوق اللغوي لمفردة (القوة) و إضاءة معانيها في اللسان العربي إلى ناشئة القرآن و أساليبه ، إذ كان بها حفيّاً ، لا ينازعه في كثافة استعمالها مصدر آخر . أعزها وصلاً في وعي العرب يتماثل في قوله تعالى :" وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ " **(الأنفال : 60)** ، إذ بث فيها القرآن الكريم نفحاتٍ خالصة من دلالاتِ الإعداد و قيم التمكين و التحصين و ما يتصل بكل أمرٍ كريمٍ من معطيات القوة الذهنية و البدنية .

تلك إشارة راسخة نحو ما تهيأ لها من أديم الاشتقاق اللغوي عند العرب و ما تنورت به من معان مائزة في السياق القرآني ، إذ استجمعت دلالاتها في القيم الآتية : **الشدة ، الحجة و البيان، القدرة ، الطاقة ، العزيمة و الجدية)**

(ينظر).))،

(ينظر : الراغب الأصفهاني ، مفردات ألفاظ القرآن ، مادة قوا، ابن منظور، 1992م ، لسان العرب ، مادة (قوا)، السمين الحلبي ، 1996م ، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ ، 3/358 – 359.)

إن ما تهيأ لمفردة القوة من أسباب القراءة المعجمية في لسان العرب و المنطوق القرآني لا يشذ عن هذه القيم الجوهرية يجمعها وشاح موحد ، يشد بعضه بعضاً بآصرة (التمكين) ؛ بوصفها القيمة الجامعة في تمثيل المعاني السابقة و نالت المفردة اهتماماً وا سعاً لدى المفكرين العرب و المسلمين ، فربما تأثرت فلسفة القوة عند هم بالفكر اليوناني و الفكر الفارسي و الهندي، و الأفلاطونية الجديدة ، لكنها اتخذت مع الروح العربية الإسلامية طابعها المميز, إذ احتفظت بالجانب العقائدي, الذي يقضي بأن القوة هي التي تمنح الأشياء نفاستها و منها المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف . و تكون في سياق أخر هي الرمي كقوله صلى الله عليه و سلم : ألا أن القوة الرمي ألا أن القوة الرمي . **(مسلم بن الحجاج النيسابوري ، صحيح مسلم، (3 / 1522)**

وقد اتخذ الفلاسفة المسلمون الزمان و المكان و الحركة من مقومات القوة ، وهذا التأثير يومئ إلى تقسيمات أرسطو، الذي عدها من تركيبات الأجسام ، بيد أن الجسم يتضمن في ذاته مبدأ الحركة, خلافاً لما يراه أرسطو (**ينظر: عبد الكريم اليافي– الموسوعة الفلسفية جـ1 ص562، 563، وينظر: نديم الجسر، 1969 ، قصة الإيمان بين العلم و الفلسفة والقرآن ، ص57)**. , ولم يخرج لدى الفلاسفة العرب و المسلمين عن هذا المدلول فالقوة عند الفيلسوف الكندي (ت: 256هـ) هي كل ما اتسم بالحركة و الزمان، بمعنى أن كل جرم فيها يختص بالحركة و الزمان، وبدونهما تفقد الطبيعة خصوصيتها. (**ينظر: د. محمد على أبو ريان ، 1973م ، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ، ص 228)**.

أما ابن سيناء (ت: 428هـ) فيذهب إلى أن القوة مرتبطة بالكون في قياس أثرها الوجودي في الموجودات المتحركة حركة محسوسة أو ذهنية ، إذ تدرك بالقوة الباطنة التي وراء المشاعر الظاهرة،(**د. محمد على أبو ريان – تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ص 287)** أو كما يسميها ابن سينا بقوة (الوهم) وأخذت القوة عند – أخوان الصفا– منحىً تجريدياً اتسم بالحركة المدبرة للأجسام و أهم صورها عندهم " قوة النفس الكلية السارية في جميع الأجسام المحركة المدبرة لها، المظهرة بها، ومنها أفعالها وآثارها.(**ينظر: محمد على أبو ريان– تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ، ص 435)**.

يبدو أن العبارة التي أطلقها الفيلسوف ابن رشد (595هـ) بأن: "العالم متحرك منذ الأزل"(**د. عبد المنعم الجفني ،1994م ، المعجم الفلسفي ، ص 152)** تنبئنا بسر احتفاء الفلاسفة العرب و المسلمين و غيرهم من اليونان بالقوة و و اتخاذهم الحركة مبدأ لتفسير ظواهر الطبيعة ، و من خلاله انطلقت تصوراتهم للموجودات ، إذ إن الحركة جبلت على التغير، أي متغيرة ، حتى غدا العالم الموجود مجموعة متغيرات من العناصر الأربعة: فالجمادات تحركها البراكين، والزلازل، وتلك البراكين تؤججها النار، والبحار تهيج، وسبب هيجانها، ارتفاع منسوب الماء وغيرها ومع ذلك فهي مرتبطة بسر إلهي و تدبير مدبر حكيم. فكل له قوة تحركه و يتغير بقوانينها .

وبذلك تكون رؤية الفلاسفة قد بنيت على فرضيتين من أنماط القوة: نمطَ حسياً مدركاَ، و آخر تستبطنه النفس السارية في الأجسام. بهذا المستخلص ، يجمعهما في الوعي الاصطلاحي – حسب التهانوني : " مبدأ الفعل المطلق " . (**التهانوني ،1996م ، كشاف اصطلاحية الفنون و العلوم**

، **2 / 1324)**. إن القوة بهذه المعطيات تتأسس على ثلاثة مفاهيم أو معان أساسية ، هي : التحكم و الهيمنة و التأثير.

كما ألفينا اللسانيات الحديثة تتخذ من مصطلح (القوة) فعلاً إبداعياً في الدراسات التداولية، إذ احتفت به ؛ انطلاقاً من تصورٍ براجماتي للأفعال الكلامية ، باعتبار أن (القوة الإنجازية) تمثل – حسب جون سيرل – دليلاً ناجعاً لتمثيل الخطاب اللساني وتحديد أنواعها ، فقد نص على : أن الفعل الإنجازي يمثل الوحدة الصغرى للاتصال اللغوي و أن للقوة دليلاً يسمى دليل القوة الإنجازية يبين لنا نوع الفعل الإنجازي الذي يؤديه المتكلم بنطقه للجملة و يتكون هذا الدليل أو المؤشر من خصائص نحوية تتضح في نظام بناء الجملة ، خبرية أم إنشائية ، كالاستفهام والأمر وشدة طلبه، والنهي وشدته أو معجمية ،أو صوتية كالنبر و التنغيم و في اللغة المنطوقة أو المكتوبة كعلامات الترقيم . فالقوة الإنجازية تعني أسلوب الجملة و طريقة إنجازها بين المتكلم و المخاطَب وما يتعلق بأساليب حمل الكلام بينهما .(**ينظر: العبد ، د. محمد ، 2004، تعديل القوة الإنجازية ، دراسة في التحليل التداولي للخطاب ، ص 13)** .

في ضوء ما سبق ، تصبح (**القوة**) – **في تصورنا – هي الطاقة النشطة التي تتولد في الأشياء الحسية و الأجسام المادية حين تتهيأ لها أسباب الترابط التكويني و العضوي في أنساقها الظاهرة و المضمرة ، لها فعل وظيفي , متعدد القوى بلوازم التنظيم و التحصين و التأثير و التمكين** . إن مفهوم (**القوة**) بمحموله الاصطلاحي – الذي نصوغه ، يستمد فاعليته من مجمل التصورات و المفاهيم و المقاربات ، تشكلها بنيتان متواشجتان : بنية شكلية ظاهرة ، بنية باطنة عميقة .

ثانياً: مفهوم النووية :

إن ما تقدم في سياق التنظير لمفهوم (القوة) و ما تنورت به معانيها في قوله تعالى : " إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ "(**سورة الأنعام :95)** ، يقربنا من مفهوم (النووية) و دلالاتها في التراث العربي ، إذ تؤول مفردة (النوى) في معانيها إلى أصل الأشياء و منشئها ، كما تحيلنا المعاجم في دلالة النواة أيضاً إلى معانٍ أُخر ، أعزها قبولاً في المعاينة المعجمية ، هي :

- البعد و الناحية من الدار .
- الاستقرار و الإقامة ، استقرت به النوى ، يعنى : أقام .
- القصد و الحاجة ، فلان نواك : أي قصدك .
- و النووي من الدواب الذي يأكل النوى ، يقال : بعير نووي وهي نووية . (**ينظر:ابن منظور ، لسان العرب ، مادة نوى**)

إن ما تهيأ لمفردة (النواة) من معانٍ و اشتقاقات لفظية كالنوى و النووي أو النووية و غيرها ، يرشح لنا أربع دلالات ، إذ لا تخرج عن قيم (القصدية ، الزمانية ، المكانية ، الخصوبة) ، على نحو يمنحنا شعوراً فيّاضاً بقيمة المصطلح في منازل الرؤيا الإبداعية و ما يتنزل في مسالكها من لوازم القوة و ملزومها من الطاقة المعرفية و الجمالية في العربية الفصحى .

كما صحت المفردة أيضاً مع علم أخر هو علم البيولوجيا ، المتصل بدراسة (الحمض النووي DNA) و هو بمثابة الرسم الهندسى و التعليمات اللازمة للكائن الحي لكى يمارس الحياة و يعتبر وسيلة تخزين للمعلومات الوراثية ، فهو كمثل (دار كتب أو دار معارف). (**جويل دو روزناي ، مغامرة الكائن الحي ، ترجمة : أحمد ذياب ، مراجعة : محمد دبس ، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، يونيو ، 2003م ص 75و ما بعدها**).

وعلى الرغم من غياب المصطلح في الدرس اللغوي القديم ، إلا أن ثمة ما يؤشر نحوه من طرف خفي ، إذ ألفينا صورته ماثلة في اللسانيات الحديثة ، إذ نعني بالجملة النواة تلك الجملة المحتوية على عنصريها الأساسيين المسند prédicat و المسند إليه sujet ، : J. Lyons Sémantique,Linguistique p . 101 . Paris 1990 ، (حسّان ، د. تمام ، إعادة وصف اللغة العربية ألسنيا ، ص 160) .

في ضوء الرؤى السابقة تكتسب (**النووية**) بعداً تداولياً في التمثيل النوعي ، إذ يتحول من قول إلى صبغة نشطة في المنطوق اللغوي ، له سماته الخاصة و مستوياته الموضوعية و الفنية ، أي إن النووية في منطوقها الاصطلاحي تؤسس لنوع نووي و ليس لنواة نوع في مساحة المنطوق ، يستقيم في إمكانية اشتغاله الاصطلاحي برؤية تختزل تجربة مجتمع ما، أو تضرب في موقف معين و يتم تداوله بصيغته الأولى ؛ في سياق التعبير عن التجارب المماثلة على أن ما يهمنا في هذا الأمر منوط بأمرين :

الأول : بيان المرجعية القيمية في دلالة النووية ، كما وردت في المعاجم.
الآخر: رصد الثابت و المتحول من دلالات (**النووية**) في سياق التطور و التجلي و انتقالها عبر القنوات الاتصالية، أي من ذاكرة المعاجم إلى ذاكرة الفنون و المصطلحات.

بالتاكيد فإن ما تناصرت لهذه القوة من أسباب الفاعلية و التأثير و التفسير و التأويل و التجريب و النظم الإبداعي قد يفيض به الحديث في هذا المقام لكن أعزها حضوراً – في تصورنا – **أنها (مجموع البيانات و الأفكار و المعلومات المخزنة في الذهن على شكل بنى منضدة ، تمثل في تواشجها مواقف أنموذجية لمّا تحيا به الذكرة من القيم و العلاقات الناشئة بين الزمان و المكان)** . إذ تغدو (**النووية**) أشبه بدار معارف أو بمجمع لغوي يتحدد في مدارها قوة الطاقة النووية ، أفكاراً و نظماً و تتمايز فيها أساليب شتى و شياتٌ متنوعة من الأشكال اللغوية ، كالشعر و الخطابة و الأمثال و القصة و الرواية و المسرح وغيرها ، على أن يجعلها قوة تتمايز بها الأجناس و تأخذ في مسارها تشكلات الظاهرة الأدبية بقيم الشبيه المختلف و أبعادها الصوتية و التركيبية.

ثالثا: مفهوم القوة النووية : لعل أول منازل هذه الإبانة المفصلة يتحدد نظرياً بالحديث عن (**القوة النووية**) ، بوصفها كما نتصور صبغة الهداية و هلال التنوير بين الألفاظ و المعاني ، إذ تمثل منهجاً في الكشف عن طرق اجتلاب المعاني و أساليب التئامها و بناء بعضها على بعض و ما تعتبر به أحوالها في جميع ذلك .(**القرطاجني ، حازم ،1967م، منهاج البغاء ص11)** و تأسيساً على ما تقدم ، يمكننا رؤية **القوة النووية** على أنها : (**مجموع الطاقات النشطة و السمات الناظمة و الإيحائية المحددة نظرياً لمكونات المنطوق اللغوي أو النوع النووي ، بأبعاده الموضوعية و الفنية و الجمالية**) .

إن هذا المفهوم الذي نصوغه يستمد فاعليته الا صطلاحية في مسارات الرؤية المنهجية من محددات المنهج النووي الذي يتماثل في وعينا بآليات إنتاج الظاهرة اللغوية و مسالك إشاعتها و طرق تداولها في العربية الفصحى ، و هي اللوازم النووية الأتية :

1- **النواة : تعد (النواة)** من أهم المؤثرات التي ألقت بظلالها على إنتاج المنطوق اللغوي ؛ باعتبارها مفتاحاً لتصور الأفكار وتنظيمها ، تبعاً لقواعد البحث والتأمل في النماذج الأدبية الرفيعة عمّا يتواشج من أفكار يسجلها المتكلم ، من خلال وعيه بالقيمة اللغوية و الأدبية للنوع النووي ، و حركته الدلالية بين الصياغة و العمق البنائي ،

سواءً في صورته المقروءة أم المكتوبة . و فرضيته الأولية في ذلك أن الأدبية نادراً ما تتمايز في مستواها الدلالي ، الجمالي و النفسي ، إذ إن ما يتحصل به التمايز في طبيعة المعرفة التي حملتها الأنواع النووية يتوقف على ما هو مخزن في الذاكرة من بيانات و أفكار مناسبة لتشخيص المواقف و معاينة الواقع و تمثيل الظاهرة اللغوية بمستوياتها النوعية .

بهذا المعطى ؛ فإن (**النواة**) في اصطلاحنا تمثل الوسيط المتجانس homogenues modium الذي لا يمكن أن يتحقق النوع النووي أنطولوجياً إلا من خلال توفرها .(**عبد الهادي ، د.علاء ، 2004م ، مقدمة لنظرية النوع النووي ، ص 227)** ؛ بوصفها – كما أسلفنا – مستودع البيانات و الأفكار و المعلومات المخزنة في الذاكرة على شكل بنى منضدة بأنساقها الجنينية و الجمالية).

النوع النووي: النَّوْعُ أَخَصُّ من الجِنس وهو أَيضاً الضرْبُ من الشيء قال ابن سيده وله تَحْديدٌ مَنْطِقيّ لا يليق بهذا المكان والجمع أَنواعٌ قلّ أَو كثُر قال الليث النوْعُ والأَنواعُ جماعة وهو كل ضرب من الشيء وكل صِنْفٍ من الثياب والثمار وغير ذلك حتى الكلام وقد تَنَوَّعَ الشيء أَنواعاً وناعَ الغُصْنُ يَنوعُ تمايَلَ وناعَ الشيءُ نَوْعاً تَرَجَّحَ . **لسان العرب – (8 / 364)** و من ثمّ فإننا

نتطلع من وراء الجهد و المقاربة تأسيس (المنهج النووي) لمعاينة المنطوق اللغوي في زيه الجديد المسمى بـ (النوع النووي) بديلاً عن (الجنس الأدبي) و يكتسب خصوصيته باعتبار دلالة النوع في الفكر اللغوي و الفلسفي فيجري بمقتضى مبدأ يعنى بقيم التنظيم و الترتيب المرتبطين بعدة مفاهيم تشكل إلى حد ما بنى لغوية برؤية تتجاوز النظرة الأحادية للمنطوق اللغوي في دثاره الأدبي ، إذ سيشتغل بطرق التواضع و التجريب بمقتضى الوقائع و الأحداث ، مما يمكن أن يتحقق في مسائل معرفية متنوعة ، كمسألة إنتاج اللغة و الفهم والإدراك الحسي والعقلي .

2- الفتيل المكافئ :

لا يخفى على ذي بصيرة غير أعشى عن التأمل إدراك الطاقة النووية الحافظة لصورة الشعر مثلاً و كيانه ، إذ ستظل الطاقة الصوتية أو الإيقاعية المتصلة بالأوزان و القوافي هي القوى المائزة و الطاقات الحافظة للقالب الشعري و معيار الشعرية في تمثيله. و غيابها عن متنه يستحيل الشعر إلى خطاب أكثر ما يوصف به الخطابة و المقالة .

كما إن للأمثال العربية قوتها النووية الخالصة في الإيجاز و التوقيعات اللفظية المقتصدة و التخزين النشط للأحداث وما يتصل بروابط القصص و الرواية و ما يتعلق بها من لوازم استدعاء العلاقات الحوارية و الزمانية و المكانية و استحضار الشخوص و الأبطال يمثل ملمحاً خاصاً في هوية الأنواع السردية .

فهذه القوة تحفظ لكل نوع نووي و ظاهرة لغوية هويته اللغوية و انتمائه السحري في عالم العربية ، إذ يميز هذا عن ذاك بمعطيات الرؤيا الإبداعية و منطق القوة النووية المائزة بين فنون القول ، بل تغدو قوانين اللغة العربية أمراً لا مناص فيه من القول و التأكيد على : أن ما يتوارى خلف الأنظار في منطوق العبارة أو مكتوبها أو ما يتنزل في مقامات الخطاب الأدبي يمثل القوة الفاعلة في تمثلات العربية الفصحى .

3- **النظير (الشبيه المختلف)** : هو الدلالي لمجموع القيم اللغوية و الأدبية والجمالية وتبرز قوته بين نظم الكلام و ظروفه أو مؤثرات المقام التي تتداعي لانتظامه الصياغي ، يجري ذلك على المثل العربي القائل : "**أذل من فقعٍ بقرقرةٍ**" ، إذ يساق لمن لا أصل له و لا قيمة في الجوهر ، فتنشئ الجاذبية صوراً أخرى للمثل مما يجري بالقوة مجرى الشبيه و النظير في الدلالة و القيمة المعنوية ، و هو ما يمكن معاينته في الشكل الآتي :

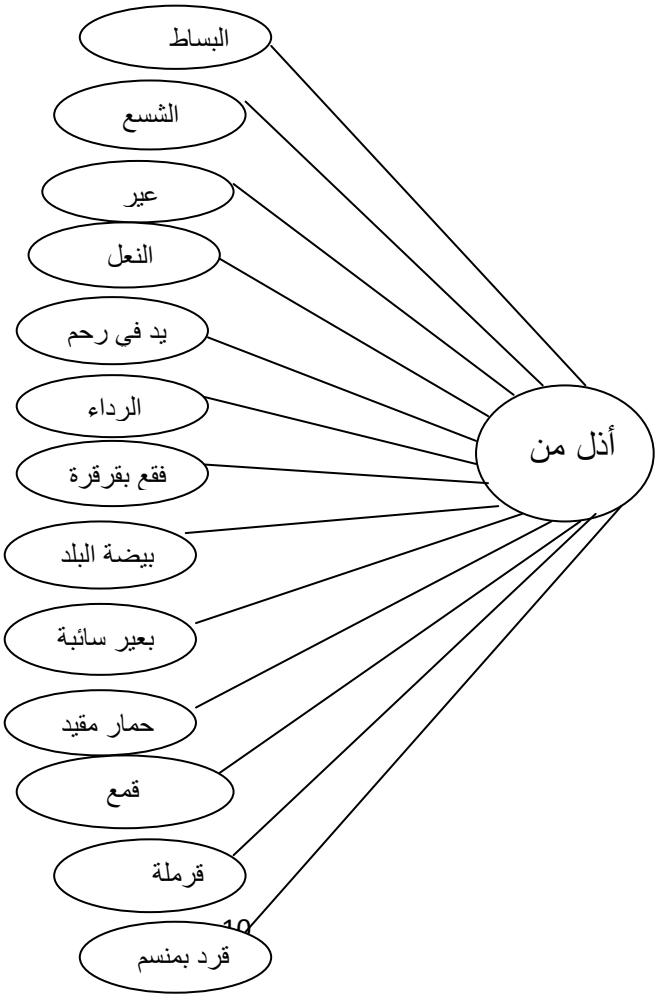

(ينظر : الميداني ، مجمع الأمثال ، 18/2 - 21.)

شكل (1) أحد تشكلات القوة النووية

إن قوة النظير في الأمثال خالصة في إنتاج المحمول الدلالي لمفهوم (الذل) المسكون في الوعي و التشكيل النووي ، إذ لا يتقيد بالتعبير في تعامله مع الأنساق اللغوية فحسب، و إنما يتحول به إلى موقف من الوجود، و شكل من أشكال الكينونة، وهو الفكر الخالص، و التحويل المعجز لتصورات فلسفية مصورة لما يعتمل في الذهن من قيم و علاقات نفسية وجمالية إلى الشكل الذي يمكننا به تلقيه و امتصاصه .

1- الطلع النضيد :

تتخلق الظاهرة اللغوية في الوعي اللساني و الإنساني على السواء و تأخذ مساقها الدلالي بين المبنى و المعنى باعتبار موجهات **الفكر و النفس و الواقع** ، إذ لا ينشأ منطوق لغوي و لا يتماثل النوع النووي ما لم يتحدد في مساراتها الثلاثية ، و تجري بمقتضى الوجود المادي و الذهني للوقائع و الأحداث في مدارات معلومة و أنساق مخصوصة يتم استخلاصها من شعب الفكر أولاً و ما يستقيم ظله مع الواقع ، ثم مدى ملائمته للنفس و تطلعاتها الشعورية المنشودة .ثم يأخذ حظه من الاستواء في بنية خالصة تسمى في اصطلاحنا بـ **(الطلع النضيد)، بديلاً عن النظم و الأسلوب** . و ليس الفكر سوى حالة من تنضيد الكلام و إنتاج الأخبار عبر قنوات : الإسناد و الوصف و الإضافة ، فهو كما يقول عبد القاهر الجرجاني : " أن يُخبِرَ عن شيءٍ بشيءٍ أو يصفَ شيئاً بشيءٍ أو يضيفَ شيئاً إلى شيء " **(الجرجاني ، عبدالقاهر ، دلائل الإعجاز ص 57)** و غيرها من لوازم الحبك و التنضيد و البناء اللغوي . و إذا كان هذا كذلك لم يخلُ هذا الذي يُجْعَل في الألفاظِ فكراً من أحدِ أمرين : إمّا أن يخرج هذه المعاني من أن يكونَ لواضعِ الكلامِ فيها فكرٌ ويجعلَ الفِكْرَ كلَّه في الألفاظِ . وإما أن يجعلَ له فكراً في اللفظ مفرداً عن الفكرة في هذه المعاني فإن ذهَب إلى الأول لم يكلم وإن ذهب إلى الثاني لَزِمه أن يجوِّزَ وقوعَ فكرٍ من الأعجمي الذي لا يعرِفُ معانيَ ألفاظِ العربية أصلاً في الألفاظِ وذلك مما لا يَخْفى مكانُ الشُّنْعة و الفضيحة فيه **(المصدر نفسه ، ص 57)**

أو ضح من ذلك كقول بشار بن برد :

كأن مثار النفع فوق رؤوسنا و أسياقنا ليل تهاوي كواكبه

فهل يتصور عارف باللغة و أسرارها أن يجري البيت على هذه الصورة و الصنعة دون استحضار الشاعر لموارد الأفكار و تعلقها بالواقع . فلا يظنَّ أحدٌ أن يكون قد وقع " كأن " في نفسه من غيرِ أن يكون قصد إيقاع التشبيه منه على شيء ، وأنْ يكونَ فكَّر في " مُثار النقع " من غير أن يكونَ أراد إضافةَ الأول إلى الثاني و فكَّر في " فوق رؤوسنا " من غير أن يكون قد أرادَ أن يضيفَ " فوق " إلى الرؤوس وفي الأسيافِ من دون أن يكونَ أرادَ عطفَها بالواو على " مثار " و في الواو من دونِ أن يكونَ أرادَ العطف بها و أن يكون ذلك فكَّر في " اللَّيل " مِنْ دونِ أن يكونَ أرادَ أن يجعلَه خبراً لكأن و في " تَهَاوَى كواكِبُه " من دون أن يكون أرادَ أن يجعلَ تهاوى فعلاً للكواكب ثم يجعل الجملةَ صفةً لليل ليتمَّ الذي أراد من التشبيه أم لم تخْطُرْ هذه الأشياءُ ببالهِ إلاّ مُراداً فيه هذه الأحكامُ والمعاني التي تراها فيها (**الجرجاني ، دلائل الأعجاز ، 315**).

فمدار التشبيه و الوصف بالنظر إلى ما يستساغ و يؤثر إنما استحال بقوة الجاذبية بين ما هو ممكن الوقوع ، و ما يكون الوصف به تحسينا للموصوف ، أو بمنطق البيان البلاغي ما تتحصل صورته بين المشبه و المشبه به بجامع المشابهة بين الطرفين ، فبهذا الترتيب الماثل في البيت الشعري يصح الوصف و يحسن التشبيه على سبيل التمثيل و المبالغة .

أولاً : الأصالة و الإجازة بالفصحى :

تستمد هذه القوة النووية المانعة قيمتها من لوازم الارتباط و مقاييس التفكير العربي المخصوص بأزمنة الاجتماع اللغوي و ناشئة الجواهر النفيسة في لسان العرب ، وأعنى المصادر الموثوقة . فما تناصرت له الأدلة و تهيأت له من أسباب التفوق اللساني ، لايخرج عن ثلاثة مصادر أو وسائط ناقلة للعربية الفصحى ، هي : **القرآن الكريم ، الأدب الجاهلي ، لهجات القبائل** . أن هذا المنتج اللساني قد جرت عليه أسباب القوة النووية من جهة الخلوص نحو السيرورة و التداول ، بل تهيأت له قيم الاستدعاء الثقافي و ارتباطه بمجموعة من القواعد الثابتة و المتغيرة ، وهذا الثبات أو التغير ، محكوم بمؤثرات يمكن تلمسها في ضوء النماذج التي استلمتها و منها الخطاب القرآني والحديث النبوي و الشعر العربي و الأمثال الفصحى هي التي نعدها آليات وقوانين المنطوق اللغوي في العربية الفصحى ، و لا يمكن تفسيرها إلا بالاحتكام إليها ، و نجدها تتحرك بين آليتين أساسيتين هما : الإطار المعرفي و التمثيل الذهني ، و كل آلية تستجمع قواعدها من قوانين أخرى .

و بيانها منوط ، لدينا بأعزها سنداً في الاجتماع و أقواها دليلاً في الاستشهاد ، إذ يغدو القرآن الكريم أوثق هذه المصادر و أجودها ، فقد أجازها الله عز وجل من السماء ، حين تنزلت آياته بلسان عربي ، قائلاً جل شأنه : " كما نص صراحة على ذلك في قوله تعالى: " إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون" الزخرف : 3) و قوله "و إنه لتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين، على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربي مبين .(**الشعراء 192-195)** ، بل لقد تعهد بحفظها ورعايتها على سبيل التمكين مؤكداً ذلك بالقول الجميل " إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ "(**سورة الحجر ، الاية :9**) ؛ فاكتسبت بهذه الرعاية شرعة القول الجليل و منهاج القداسة والأصالة ترتيلاً و تفسيراً و تأويلاً ، لكيلا تطمس أبجديتها و لا تعفُ عليها آثار الزمن ، كما طمست بعض أبجديات اللغات السامية . ، إذ ارتقى بالمنطق اللساني، حين أخرجه من زاوية اللهجة المحلية إلى رحاب اللغة الصافية العالية الجامعة لأساليب العرب وأجناسهم ومناطقهم، ذلك " أن القرآن قد جمع العرب على لغة واحدة بما استجمع فيها من محاسن الفطرة اللغوية التي جعلت أهل كل لسان يأخذون بها، ولا يجدون لهم عنها مرغباً، إذ يرونها كمالاً لأنفسهم من أصول تلك الفطرة البيانية" **(مصطفى صادق الرافعي ، 1997م ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، مكتبة الإيمان ، القاهرة ، ط 1 ،1417 هـ-ص65-66،)** ومن ثم فقد أخذهم من ألسنتهم ؛ لتوحيد اللسان العربي على لغة واحدة، سميت في اصطلاح العلماء بـ(***العربية الفصحى***)،

لقد بلغ القرآن الغاية القصوى مما يمكن أن يبلغه الكلام العربي من حصول الكيفيات في نظمه ، و إبداع العديد من أفانين التصرف في نظم الكلام ، مما لم يكن معهوداً من أساليب العرب ، و لا مجال لأن نبسطه في مقامنا هذا حتى لا يضيق بنا المقام كما أودع فيه من المعاني الحكمية و الإشارات بما يمنح العربية الكفاءة العلمية من خلال لمحات الإشارة إلى الاكتشافات الحديثة ، كقوله تعالى : و إن لكم في الأنعام لعبرة نَسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَ دَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلْشَّارِبِينَ " (سورة النحل، الأيه 66) " إذ يؤشر تقديم الفرث على الدم الى حقيقة علمية ، تجرى بمقتضى قوانين العلم البيطري فيما يخص إنتاج اللبن ، وفى قوله تعالى : يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُختَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَآءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ " سورة النحل الآية 68 – 69. إشارة علمية أيضاً إلى قيمة عسل النحل و نجاعة شرابه لأمراض الإنسان بأن فيه شفاء للناس هو حقيقة علمية أثبتتها التحاليل لهذه المادة لانها تجمع عدة عناصر متنوعة الاهمية في التغذية والعلاج فضلا عن أنه الغذاء الوحيد المعقم طبيا و أنه قاتل للميكروبات

ومبيد للجراثيم بسبب احتوائه على مواد داخلة في تركيبه للقضاء عليها، فهل للانسان .(**زغلول النجار ، 2010، الحيوان في القران الكريم ، ص 313)**
فذانك برهانان من ربك على كفاءة اللغة علمياً و مواكبتها لتطورات المستقبل و اكتشافاته الحديثة و هناك أمثلة متعددة لا يسمح المتن بذكرها .

وليس أدلّ على ذلك من إن العاطفة والانفعال لهما دورهما في تحقيق هذا الضرب من الإيقاع إذ "إن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وأن الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنويع الصوت، فتظهر الصفات الصوتية المختلفة من مدٍ وغنة ولين وشدة وجهر وهمس...الخ" **مصطفى صادق الرافعي – إعجاز القرآن والبلاغة النبوية – دار الفكر العربي – القاهرة – ط8 – 1416هـ - 1995م ص (209).**

كما إن الطريقة الصوتية في النص القرآني والتي تتجلى في نظمه، تعد أول شيء أحسته الأذن العربية، أيام نزول القرآن الكريم، في الوقت الذي لم تكن تعهد مثل هذه الطريقة والإيقاع، فظنوه شعراً، لأنهم وجدوا في إيقاعه وترجيعه لذة، وأخذتهم من لذة إيقاعه التدوير، والتقسيم للحركة والسكون، تقسيماً منوعاً يجدد نشاط السامع لسماعه(**ينظر: د. محمد عبدالله دراز – النبأ العظيم ص 103.**)،

وإذا تدبرنا كلمات القرآن في نظمها، فإننا نلفي حركاتها الصرفية واللغوية تجرى في الوضع والترتيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة ، إذ تهيئ بعضها لبعض، وتساند بعضها بعضاً .

ثانياً : الجاذبية :

تحيلنا المفردة في منطوق المفهوم الاصطلاحي إلى علم الفيزياء أحد العلوم الطبيعية الحديثة ، إذ يتصل بقانون الجاذبية للعالم الفيزيائي إسحق نيوتن الذي ينص على أن : " الجاذبية هي ميل الكتل و الأجسام للتحرك و الانجذاب نحو بعضها البعض كما في الجاذبية بين الأرض والشمس.. و منطوق القانون : كلما اقتربت الأجسام من سطح الكوكب زاد ثقلها و يقل الثقل إذا ابتعدت عن كواكبها ، و بذلك يعتمد ثقل أي جسم على بعدين : بُعد الجسم عن مركز الكوكب. و كتلة الجسم (كمية مادته).(**ينظر: فريدريك .ج., دافيد .أ. جيرد ، أساسيات الفيزياء ، ص 263)**

و النظر في موضوع الجاذبية بهذا التصور العلمي يلقي بظلاله على مسار الاشتغال النظري بالقوة النووية كمقياس ناجع لاكتشاف أواصر التجاذب بين الألفاظ و المعاني في اللغة العربية .

فما انتهى إليه نيوتن في القانون المشار إليه سلفاً يعكس تحولاً علمياً في معالجة الظواهر الطبيعية ، إذ تتحول الجاذبية من حقيقة كونية على مناكب الكون إلى ظاهرة فيزيائية ناشئة بمقتضى قوانين خاصة و نواميس علمية دقيقة ، تضبط حركتها في الفضاء الأرضي بين الزمان و المكان . فذانك برهان علمي على صحة الجاذبية بين حركة الأجسام المادية و مساحة الكواكب في الكون ، **فهل ثمة جاذبية أو قانون يضبط حركة الألفاظ و المعاني في في كون العربية الفصحىً ؟**

إن الإجابة على هذا السؤال تتطلب قصاً لطيفاً بوعي و النظر بعمق فيما اهتدى إليه علماء العربية في وقت مبكر من تاريخ العلوم اللغوية و البلاغية ، فقد رشحت لنا أراء و مبادئ من حديث العلماء العرب ، تعكس في جلها وجهاً مضيئاً لأبرز االقوى الإبداعية في العربية الفصحى ، تتصل في النظر البلاغي عند العرب بقوة (الجاذبية) بين قانون " موافقة الكلام لمقتضى الحال "، و استشعار مبدأ " لكل مقام مقال" ، فهما يمثلان طرفي المعادلة : (المتكلم) و(المخاطب) و سائر ما يأتلف منه "المقام" و رصد ما يكون من تأثير ذلك في تشكيل الكلام و تأليفه على هيئات في القول تتنوع و فقاً لتنوع المقامات . **إذ** تهيئ الجاذبية (المقام) لإنتاج (المقال) في ظروف مختارة بوعي رشيد لكل القيم و العلاقات الناظمة و ما يجري مجرى المناسبة للمقام و لقوانين النحو و لتنظيم المحتوى بطريقة منطقية مترابطة تتسق في مجموعها بعملية الاتصال ، فلا يخلط بين أقدار الألفاظ و أقدار المعاني و لا يتصنع الجد حيث يجب الهزل . و مثال ذلك ما أورده الجاحظ فيما نقله عن بعض أهل الهند قولهم : " جماع البلاغة التماس حسن الموقع و المعرفة بساعات القول". و أن يكون الخطيب .. متخير اللفظ لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة و لا الملوك بكلام السوقة ... و مدار الأمر على إفهام كل قوم بقدر طاقتهم والحمل عليهم على أقدار منازلهم و... و لكل ذلك مقدار من الشغل ولكل شغل مقدار من الوهن ولكل وهن مقدار من الجهل " (**البيان والتبيين 1/92-93.**)

إن اعتماد البلاغيين مبدأ " لكل مقام مقال " " و لكل كلمة مع صاحبتها مقام " **مفتاح العلوم ص:168-169**. جعلهم يسلكون بوعي أو بدون وعي سبيل الجاذبية ؛ فتنورت أبعادها و تهيأت أسبابها لديهم بعبارة مكثفة تختزل أفكاراً و أحاديث شتى من قوى التجاذب اللساني و محددات الاتصال اللغوي ، حتى غدت العبارة من جوامع الكلم في تفسير دراسة المعنى في كل اللغات لا في العربية الفصحى فقط ، وتصلح للتطبيق في إطار كل الثقافات على حدٍ سواء ، ولم يكن "مالينو فسكي" وهو يصوغ مصطلحه الشهير : context of situation يعلم أنه مسبوق إلى مفهوم هذا المصطلح و قد سبقه العرب بألف سنة أو ما فوقها .(**اللغة العربية معناها و مبناها ص:372**) .

يمكننا تصور ذلك من خلال قانون افتراضي ، ينطلق في رؤيته للجاذبية من المحددات التي بسطنا معالمها في المصطلحات الخمسة : (**النواة ، النوع ، النظير ، الفتيل المكافئ ، الطلع النضيد**) ، إذ يستقيم في وعينا بالصيغ الأتية :

- كلما ابتعد النظير عن مركز النواة ؛ زادت طاقته النووية والإبداعية .
- كلما كان الفتيل المكافئ قريباً من النواة ؛ كلما ازدادت قيمته الوظيفية في حماية النوع وتحصينه من التحول النووي .
- تزداد قوة الطلع النضيد بزيادة النظائر، فبينهما علاقة مترابطة و تناسب طردي .

تتراءى هذه القوانين مجتمعة في معادلاتها الوظيفية و الرياضية في المرسوم الأتي :

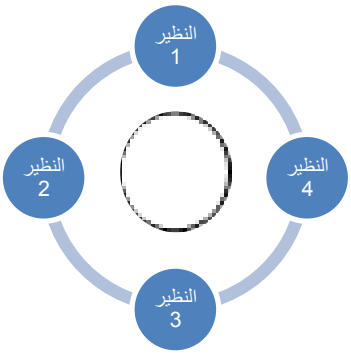

ومن طرق الجاذبية بين الفكر و الكلام وما ينشأ بينهما في إطار الواقع أن يكون للناظم أو المتكلم قوة نووية يستولي بها فكره على جميع الجهات التي يستكمل حسن الكلام في كل جهة من تصور المقاصد اللائقة و الأغراض السامية . و من ذلك حسن الإشارة و تجويد العبارة و التخزين النشط لمرامي الكلام ، فقول العرب مثلاً :(**زيدٌ كثيرُ رمادِ القدرِ**) يتلازم في الوعي الإنساني على مساحة الواقع بجاذبية الملفوظ و قوة الفكر اللغوي ، مجموعة لوازم نووية ، لا يتصور المتلقي من الرماد و القدر غير سبيل الإحراق ، فالطبخ ، فكثرة الضيوف ، فالمضياف ، ثم تأخذ صورة زيد في التجلي و التماثل برؤية ذهنية تستحيل في العرف الاجتماعي أنموذجا في الكرم و من وضعه الطبيعي إلى وضع مثالي له سمت المصلحين في المجتمع .

وتظل اللازمة الاجتماعية في جاذبية الألفاظ نحو المعاني مركوزة على قوة نووية تجري بمقتضى الواقع في قوله تعالى " وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا " **سورة الإسراء : 29)** ، إذ لا يمكن استلهام الدلالة في النهي عن جعل اليد مغلولة إلى العنق أو بسطها كل البسط ، و إنما الدلالة خالصة في الفعل الإنجازي (**لا تجعل**) و قوته النووية كامنة في القسط بين البخل و الإسراف . و هي قيمة لا تتحصل بالعناصر اللغوية إلّا بالعودة إلى الواقع الاجتماعي بمقتضى ما يتجاذب الظاهرة من قرائن الاتصال الاجتماعي بين المقام و المقال .

ثالثاً : النسبية :

إن ما تهيأ لمفهوم الجاذبية من أسباب القوة النووية فيما تقدم وما تنورت به أفكارنا من قانون نظرية إسحاق نيوتن في الجاذبية ليلقي بظلاله أيضاً على مفهوم النسبية للعالم الفيزيائي **ألبرت أنيشتاين** ، إذ اعتمد فيها العلاقات الزمكانية كبعدٍ رابع لقياسِ المادة ، إذ نصت نظريته على أن للكون الذي نعيش فيه أربعة أبعاد ، هي : الطول و العرض و الارتفاع و الزمن ؛ فانتهت به ملاحظته و فرضياته إلى قانونٍ خاصٍ، ينص على أنه :

- لا يوجد مكان مطلق (مكان أو جسم) يمكن إسناد كل شيئٍ إليه .
- أن سرعة الضوء في الفراغ ثابتة و لا تعتمد على سرعة المشاهد .

لقد أحدثت النظرية النسبية في مفاهيم كل شيء فخلطت المكان و الزمان وجعلت من المطلق نسبياً و المستقيم محدباً كما كان لها نتائج فلسفية عديدة و الفرضيتان التى افترضهما اينشتاين يعتبران أساس النسبية .(**أينشتين ، ألبرت ، 2000، النسبية النظرية الخاصة والعامة – (ترجمة د. رمسيس شحاتة) – مكتبة الاسرة – ص 25)**

لقد تحولت الظاهرتان من حالة السكون الغائب في مسارب الأذهان إلى قضيتين علميتين ، لهما قوانينهما الخاصة التي يفقه أسراراها علماء الفيزياء الطبيعية و المختصون بهذا المجال .

و على الرغم من سعينا لاستلهام أبعاد النظرية النسبية لأنيشتاين من جهة العلاقات الزمكانية آصرة النظرية و أسُّ الاكتشاف ، إلاّ أن كل مصطلح مقترح يظل ممثلاً للشكل اللغوي الدال على فكر صاحبه و طريقة تفكيره في معالجة الظواهر و تسويق الفرضيات .

ومن ثم فإن ما يربطنا بهذه النظرية الفيزيائية هو العلاقات الناشئة بين الأزمنة و الأمكنة ، بوصفها لازمة ضرورية لاختبار (النسبية) في تنضيد الكلام العربي و باعثاً حقيقياً لبلورة الظاهرة اللغوية في العربية الفصحى ، بل تعد مقياساً موضوعياً لاستكناه أبعاد القوة النووية في تمثل المنطوق اللساني و الأدبي في اللغة العربية ، لكن ذلك كله ليس له ضلعٌ في بناء الفكرة بين المجالين ، ؛ باعتبار الاختلاف المبين في طبيعة القوانين العلمية و أبجديات الفنون الأدبية و اللسانية ، لكن مايهمنا في هذا المقام هو تحديد مسارات الاشتغال النقدية بقيم النسبية في العربية الفصحى من خلال النظر في العلاقات الزمكانية التي مازت أفكار أنيشتاين مع فارق التصور الأبستمولوجي بين مقاربتنا و قوانين الفيزياء النووية ، إذ عنّ لنا استلهام الشبيه المختلف بين العلوم و ألوان المعرفة و اقتناص ما يتقارب في معطياته من قوانين العربية و أسرارها ، عسى أن نسقط المعايير بين الموضوعي و الفني ،فلا يخلو الإبداع في نظم اللغة العربية وتجويدها البياني من الإشارة الى مناشط القوة النووية في ضبط المقادير اللغوية و ما يتنزل بين المقام و المقال من نسبٍ و مناسبات و ما يقع في الألفاظ من شرف العبارة و جودة الحبك و استواء النسج و لطف الانتقال و جمال التصوير مشاكله و مشابهة و تماثل و تضاد و اقتران و إيجاز و إطناب وإخبار و استخبار في مسافات متباينة ، لا نجد من ضابط يجدد معالم الاهتداء في أبعادها غير النسبية وهي في تصورنا – **(ضربٌ من القياس النقدي بين المنطوق اللساني المتعين في النظم و التمثيل المصور للتعبير و ما يجري مجرى الزمان و المكان في سياق التمثيل الذهني للأفكار ومدى علوق هذا المنطوق مع النفس الإنسانية).**

لقد ساد لدى العلماء العرب قديماً اعتبار اللغة العربية ظاهرة كونية ذات تجليات متعالية : هي في ذاتها كيان علوي متسامٍ ، لارتباطها المقدس بلغة الدين الإسلامي الجديد و هي في وجودها الأكمل صفاء و نظام سنيّ .

إن هذا المبدأ النسبي في تمثيل العربية الفصحى يغدو موصولاً بمبدأ جوهري أصيل في التفكير اللغوي القديم ، مداره أن اللغة في شكلها التجريدي هي أساس كل تنظير ، فيكون المعيار هو الأصل ، بينما يكون الاستعمال فرعاً عليه ، فهو عارض من عوارض التقدير والاعتبار. (**المسدي ، 2012، فضاء التأويل ص** 294) ، أي أن الألسنة البشرية مادامت متداولة ؛ فإنها تتطور ، و مفهوم التطور هنا لا يحمل شحنة معيارية ، لا إيجاباً و لا سلباً و إنما هو مأخوذ في معنى أنها تتغير، قد يطرأ على بعض أجزائها تبدل نسبي في الأصوات أو التراكيب من جهة ثمّ في الدلالة على وجه الخصوص و لكن هذا التغير هو من البطء بحيث يخفى على الحس الفردي المباشر ، اللهم إلا بوعي لغوي يصبح فيه الكلام مقصداً لذاته فيتضح عندئذٍ ما لا تتجلى مراسمه إلا من خلال السنين (**المرجع نفسه ص 295**)

على هذا الأساس فإن اللغة العربية ما طفقت تنمو و تزدهر ، و تتغير باتجاه التطور ، شأنها شأن العديد من اللغات البشرية ، فلا يحدها حاجز ، فقد انبثقت، منها معيارية النحو وصار علمها الكلي الذي يضبط أساليبها و يعصمها من فساد القول و اعوجاج اللسان العربي و زينها الله بالإعراب بعد أن كانت نواميس خفية تنحكم في العربية فيذعن لها المستعلمون دون وعي لها و لا إدراك .فأخرجها النحو باعتبار النسبية الزمكانية من الوجود المطلق إلى وجود مادي معياري على نحو من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل ، أي تحويلها من وضع الكمون إلى وضع التحقيق و و التجلي . عندئذ يصبح المعيار حكماً على الاستعمال ، له عليه سلطة التوجيه و الاعتراض ثمّ التقويم و تحديد المسار الصحيح في استعمالها ، فالاستعمال ناموس يستمد قوته من عامل الزمن و المعيار يستمدها من قيم تتجاوز الزمن بهذا المعطى . .(**المرجع نفسه** ص 296)

بذلك فقد تفاعلت العربية الفصحى مع الزمن ، فأذعنت لإملاءات الصيرورة التاريخية والتحرر من المكان ، لتنتقي عنها سمة الاطلاق ، إذ صارت لغة عالمية تتساوق و لغة القرآن الكريم باعتبار دين العالمين ، إذ لا يقتصر على البقعة العربية فحسب فحل محلت الاطلاق

سمة النسبية بين الحقائق والقيم المتأنية من الحقائق ، ونسبية الحقائق و القيم تبعاً لنسبية الانخراط في قانون التعاقب .

إن اللغة العربية بهذه الجينات تتكشف عن عمليتين : عملية تصوير الفكر المتكلم و علمية الفكر المتفهم لمادة الفكر المبلغة ، تتجدد في الوعي العربي بما يؤول إلى معادلة متسلسلة مؤداها أن اللغة هي التفكير يتحرك ليحرر نفسه ، فيدرك ، ثمّ يدرك نفسه بنفسه.(**المرجع نفسه ص** 300) .

و هكذا يتركز في تقدير اللغة العربية قانون النسبية باعتبار هذه الثنائية ، واعتبار هذا القانون و تسكينه في حقل العربية يتلازم حتماً بمزيد من الكشف المجهري عن نواميسها اللغوية و الجمالية و التداولية ، و علاقتها بالإنسان امتثالاً لاقتضاءات خارجية من اللغة و النحو يؤيد هذا المنحى ، فليس المعيارية في عرف النحو قوانين صارمة استبدادية تصرف النص أو الخطاب اللساني عن التفاعل مع العلاقات الإنسانية ، بل إنه يعصمها من الانزلاق في الفساد اللغوي مع تشجيع النمو و التطوير بمقتضى الحيوية و الفن الرشيد .

ومن زاوية أخرى تستمد النسبية قوتها النووية في فنون القول بمقتضى العلاقات الزمكانية المجنحة بثنائية الزمان و المكان ، إذ تغدوان لازمتين جوهريتين لتميز المنطوق اللساني وتشخيص دلالالته الناشئة بين الأزمنة و الأمكنة .

فما قيل في العصر الجاهلي و ما انتظم في العصور اللاحقة منذ العصر الإسلامية و الأموي والعباسي حتى العصر الحديث يتمايز بمعطيات النسبية فلكل عصر صبغته الزمانية و انتمائه المكاني و ظروفه الخاصة في انتقاء الألفاظ و اصطفاء الأنساق الدلالية .

أي أن كل عصر من العصور يتلازم في معطياته ومسارات الإبداعية وظروف الحياة المختلفة بطبيعة المكان ومايلقي عليها من تحولات الزمن ومتغيراته .

ومن ثم فإذا كانت مفردات العصر الجاهلي تدور حول الأطلال و الخيل و الليل و البيداء و الخمرة و المرأة و السجنجل و المتعثكل والناقة فقط ، كما تنور العصر الإسلامي و الأموي بمادة لفظية ومعان جديدة فشاعت مفردات كالقرآن والإسلام والكفر و الإيمان والصلاة و الزكاة الإسلامية ، و اتخذ العصر العباسي من القصور والثقافة والعلماء والمؤدبين والزهد

والهجاء والمدح والرثاء والجواري والعروبة والشعوبية واختلاط الألسن علامات مائزة وتحولات تشف عن روح الخلافة و لا إمارة وفتح الأمصار .

وتغيرت ملامح هذه العصور بمعطيات العصر الحديث الذي دنت له مقاليد التطور والاكتشافات واستقامت أمامه المشاعر الثورية ضد الغزاة و المستعمرين واقتضت الفنون .

صفوة القول : أن العربية الفصحى تتفاعل مع العلاقات الزمكانية لمواكبتها وتجديد نفسها بما يحقق مبدأ التعاقب في تمثلاتها اللسانية والأدبية حتى تنتفي عنها سمة الإطلاق ، باعتبار الوجود المعياري الآسن .

خامساً: التداولية :

يتحدد المقصود من التداولية لدى أنصارها ربط فهم اللغة بحال التواصل، واقتران المعنى بظروف الاستعمال، على نحو ما مرّ مع فيتغنشتاين وأوستين .:

لأن التداولية تقوم على دراسة استعمال اللغة، فاهتمامها جديد في حقل الدراسات الإنسانية؛ يقول دالاش: "إنه تخصص لساني يدرس كيفية استخدام الناس للأدلة اللغوية في صلب أحاديثهم وخطاباتهم، كما يعنى من جهة أخرى بكيفية تأويلهم لتلك الخطابات والأحاديث"، ثم يردف ذلك بإجمال تعريفها، بقوله: "هي لسانيات الحوار أو الملكة التبليغية.(**أحمد المتوكل، 1985 ، الوظائف التداولية في اللغة العربية ، ص8)** .

النتائج :

1- تمثل الفصاحة مصدر الإلهام و صبغة الهداية في مقاربتنا للقوى الإبداعية في اللغة العربية ، باعتبارها القنظرة النشطة في مسار التحول من الوجود المطلق إلى الوجود المعياري الأصيل و جودة الارتباط القويم بالإعراب و النحو العربي .
2- يتبنى البحث مصطلح النوع الأدبي بديلاً لمصطلح الجنس الأدبي و اعتماد النووية قانوناً بديلاً عن النصية و الأسلوبية و النظم ، كما يتخذ من (النوع النووي) المنطوق اللغوي لازمة جامعة بين الظاهرة اللغوية التقريرية و الظاهرة الأدبية الإبداعية .

3- للمنطوق اللغوي في العربية الفصحى قوة نووية مائزة ، تنتجه في وعي المتكلم ؛ فتعصمه من الزلل و الزوال على سبيل التحصين و تهيئ استقباله و تمنحه القبول و التأثير لدى المتلقي على سبيل التمكين .

4- يتخذ شروط النووية و معايير النوعية في المنطوق اللغوي بمرجعية تاريخية و لوازم عضوية .

5- القوة النووية تمنح العربية الفصحى النمو والازدهار و مواكبة الاكتشافات العلمية .

6- ليس للأشكال اللغوية المهجنة قدرة على التفاعل و النمو مثل : المقامة و الموشح و قصيدة النثر و غيرها .

قائمة المصادر و المراجع :

- **أحمد المتوكل، 1985 ، الوظائف التداولية في اللغة العربية، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1**
- **إسماعيل علي سعد – نظرية القوة مبحث في علم الاجتماع السياسي – دار المعرفة الجامعية الإسكندرية 1998م.**
- **أينشتين ، ألبرت ، النسبية النظرية الخاصة والعامة، ترجمة د. رمسيس شحاتة، مكتبة الاسرة ،2000م.**
- **-تمام حسان، اللغة العربية معناها و مبناها ،**
- **– تمام حسان ، إعادة وصف اللغة العربية ألسنيا 160 سلسلة اللسانيات 4 تونس 1975**
- **التهانوني ، كشاف اصطلاحية الفنون والعلوم تحقيق د . علي دحروج ، لبنان ناشرون ، بيروت ، ط 1 ، 1996م**
- **الجرجاني ، عبدالقاهر ، دلائل الإعجاز،**
- **(جويل دو روزناي ، مغامرة الكائن الحي ، ترجمة : أحمد ذياب ، مراجعة : محمد دبس ، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، يونيو ، 2003م ص 75و ما بعدها).**
- **الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق، محمد سيد كيلاني ، بيروت: دار المعرفة، د..**
- **زغلول النجار،الإعجاز العلمي في الحيوان ،**
- **السكاكي ، يوسف بن محمد ، مفتاح العلوم , تحقيق د/ عبد الحميد هنداوي , دار الكتب العلمية , بيروت – لبنان , ط1 , 1420هـ – 2000م**
- **السمين الحلبي ، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ تحقيق ، محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العليمة ، بيروت ، ط1 ، 1996م ،**

- –سيد قطب – التصوير الفني في القرآن ، مكتبة الشروق القاهرة
- عبد السلام المسدي ، فضاء التأويل ، ، دبي ، ط 12012م
- عبد الكريم اليافي– الموسوعة الفلسفية جـ1 ص562، 563، وينظر: نديم الجسر– قصة الإيمان بين العلم والفلسفة والقرآن – منشورات الكتب الإسلامي، والدار العربية –ط3 –1389– 1969.
- عبد المنعم الجفني– المعجم الفلسفي – دار ابن زيدون – ط(1) – 1994م
- فريدريك .ج. بوش , دافيد .أ. جيرد ، أساسيات الفيزياء ترجمة الدكتور سعيد الجزيري والدكتور محمد أمين سليمان الدار الدولية للاستثمارات الثقافية _ الطبعة الاولى مصر،)

– القرطاجني ، حازم ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، المكتبة الشرقية ، تونس ، 1967م

– محمد على أبو ريان – تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام – دار النهضة العربية – بيروت – ط2 1973م.

– مصطفى صادق الرافعي – إعجاز القرآن والبلاغة النبوية – دار الفكر العربي – القاهرة – ط8 – 1416هـ – 1995م

– ابن منظور ، لسان العرب ، دار إحياء التراث العربي، بيروت ط2 سنة 1412 هـ 1992م.

– نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، المركز الثقافي العربي، ط3، 1986م،.

- محمد العبد ، تعديل القوة الإنجازية ، دراسة في التحليل التداولي للخطاب ، مجلة فصول العدد (65) ، خريف 2004م ، شتاء 2005م ، القاهرة
- مسلم بن الحجاج النيسابوري ، صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.
- Janet L. Surry, Relationship and Empowerment(Stone Center, 1997) p.
- J. Lyons : Sémantique,Linguistique p. 101 . Paris 1990 ، sujet